يقصد إليه إلا وهو خليقٌ أن يعاوده ببعض الذكريات، إن لَمْ يعاوده ببعض ما يسوءه أن يراه.

فلما عبر الشارع المهجور تلك الليلة مطرقًا كعادته حين يسير على غير قصدٍ إلى مكانٍ معلومٍ، سمع من جانبه صوتًا يناديه، صوتًا يعرفه بين ألف صوت، بل بين جميع ما خلق الله من الأصوات والأصداء، صوتها هي بعينها يهتف به: أهوَ أنت؟

أهوَ أنت؟ سمع هاتين الكلمتين فأحس لهما صدًى كانفغار الهاوية تحت السفينة في البحر اللُّجي من أثر عاصفةٍ أو زلزالٍ، وقبل أن يجيب على السؤال الذي لا يحتاج إلى جواب، وفي أقل من رجع الصدى، بل في أقل من اللمحة الخاطفة التي انقضت بين ارتفاع رأسه إليها والتقاء نظره بنظرها، هجم على نفسه طوفان من الدوافع والهواجس التي لا يوجد لها اسمٌ في اللغات الإنسانية؛ لأن اللغات الإنسانية لا تستطيع أن تضع اسمًا لألوفٍ من النقائض والمفاجآت التي يجتمع فيها الرعب والسرور والشوق والنفور والهيام والاشمئزاز، وتريد فيها النفس أن تقف، وتريد فيها القدم أن تسير، بل تريد فيها النفس أن تقف؛ لأنها لا تقوى على أن تريد.

ولو أنه رآها عند أول الطريق قبل أن يفاجئه من صوتها ذلك الهاتف الطارئ، لعله كان يعرف ما هو مقبل عليه ويستعيد في نفسه شيئًا من ذلك العزم الذي أعانه على القطيعة، وأمده بدواعي الإصرار عليها، كلَّما جنح إلى اللين والإغضاء والمغالطة.

ولكنه أُخِذَ على حين غرة.

فوقف هنيهة لا يدري ما يقول.

ووقفت هي أيضًا لا تدري ما تقول، وكأنما ندمت على الكلمة لأنها لَمْ تسمع لها جوابًا سريعًا، ولم تَزَل تخشى ما يجيء به ذلك الجواب، فأومأت إلى مركبةٍ قريبةٍ واقفةٍ بين مركبات كثيرة، وإذا بهما يسيران معًا إلى تلك المركبة، فتجلس فيها ويجلس هو إلى جانبها وهي تقول: هذا خيرٌ من أن يرانا الناس مشدوهين كالصنمين.

والواقع أن الناس التفتوا فعلًا وجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويتهامسون.

فقال لها: صدقتِ … هو خير!

ثم صاح الحوذي: إلى أين يا بك؟

فلما لَمْ يسمع ردًّا من «البك» عاد يسأل: إلى أين يا سيدتي؟

فهمست صاحبتنا: ألا تقول للحوذي إلى أين؟

فأجابها وهو يوجه خطابه للحوذي: إلى حيث تشاء!